Soroud (10) (2026) : 295 - 316

Uṭrūḥāt jāmiʿiyya fī al-adab wa-n-naqd Taṭalluʿāt maʿrifiyya wa-ij'tihādāt manhajiyya
University theses in literature and criticism ; Knowledge aspirations and methodological efforts.

أطروحات جامعية في الأدب والنقد
تطلعات معرفية واجتهادات منهجية

عبد الواحد المرابط
أستاذ التعليم العالي
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء

Abstract: In this article, we seek to present doctoral dissertations produced by researchers in the fields of literature and criticism at Moroccan universities. In this context, we will address certain cognitive issues and methodological problems from a perspective of review and discussion. For this presentation, we have selected six dissertations that stand out for their cognitive ambitions and methodological efforts, and that have led to useful results in their respective fields.

Keywords : doctoral theses, literature, criticism, Moroccan universities, cognitive questions, methodological issues.

الملخص: نسعى في هذه الورقة إلى التعريف بأطروحات جامعية أنجزها باحثون في مجال الأدب والنقد، في سلك الدكتوراه بالجامعات المغربية. وفي سياق ذلك نشير إلى بعض القضايا المعرفية والإشكالات المنهجية، وذلك من باب المراجعة والمناقشة. وقد اخترنا لهذا العرض ست أطروحات تميزت بتطلعاتها المعرفية وباجتهاداتها المنهجية، وانتهت إلى نتائج مفيدة في مجالها.

يتعلق الأمر بأطروحة تروم إدماجَ الدراسات الثقافية ضمن النقد الأدبي وتوجيهه بعد ذلك نحو اقتراح منهجية تربوية لتدريس الأدب؛ وأطروحة ثانية تتوخى إعادة ترتيب المناهج النقدية المعاصرة واستكشاف خلفياتها المعرفية وأمْدائها التطبيقية؛ وأطروحة ثالثة تبحث البنيات اللغويةَ والأبعادَ الوجودية في الشعر المغربي المعاصر، بأنماطه الخليلية والتفعيلية والزجلية؛ وأطروحة رابعة تتطلع إلى بلورة منهجية ميتانقدية لدراسة النقد

القصصي ضمن المجهودات المبذولة في مجال نقد النقد الأدبي؛ وأطروحة خامسة تدرس الرواية العربية المَهجرية المعاصرة انطلاقا من قضايا الهوية والبحث عن الاعتراف؛ وأطروحة سادسة تقترح منهجيةً لدراسة نصوص التخييل الذاتي من منظور تداولي.

الكلمات المفاتيح: أطروحات الدكتوراه؛ الأدب؛ النقد الأدبي؛ الجامعات المغربية؛ القضايا المعرفية؛ الإشكالات المنهجية.

1. الدراسات الثقافية[1]

تقوم هذه الأطروحة على الجمع بين الدراسات الثقافية والنقد الأدبي، والاتجاه بهما نحو اقتراح تصور عَمَلي للقراءة المنهجية في تدريس الأدب. فالدراسات الثقافية مبحث علْمي سوسيولوجي، ظهر في جامعة "بيرمينْكهايم" (Birmingham) خلال ستينيات القرن العشرين، ثم اتسع إطارُه المعرفي وامتدت مواضيعُه لتشمل الأدب والفنون والإعلام. أما النقد الأدبي فهو مبحث معرفي يدرس الخطابات الأدبية بحثا عن قواعدها النظرية ومُتَغَيِّراتها النصية. وقد كان النقد الأدبي – ولا يزال – منفتحا على مستجدات العلوم والمعارف، لذلك انفتح على الدراسات الثقافية، وبلور من خلالها تصورات جديدة تستوعب الأبعاد الثقافية للنصوص، فضلا عن أبعادها الفنية والجمالية. وأما الدرس الأدبي المَدْرسي فهو يتطور من خلال تطور تصورات النقد الأدبي وأدواته التحليلية.

وفي هذا الإطار، سعى الباحث إلى إيجاد علاقة علْميَّة ومنهجية تجعل النقدَ الثقافي يتمم وظيفةَ النقد الأدبي ويمده بأدوات إجرائية تجعله فَعّالا في مجال دراسة الأدب وتدريسه. وقد انطلق في ذلك من فرضية أساسية مُفادُها أن النقد الثقافي لا يلغي النقدَ الأدبي ولا يقوم مقامه، بل يدعمه ويمده بتصورات ومفاهيم وأدوات إجرائية تجعله أكثر استيعابا لطبيعة النصوص وأكثر قدرة على تحليلها وتفكيكها، كما تجعله قادرا على تطوير القراءة المنهجية للأدب في المجال التربوي. فالباحث يرى أن التطورات التي عرفتها الدراسات الثقافية في تحليل الخطابات بصفة عامة، ينبغي أن تنعكس على النقد الثقافي من جهة وعلى الدرس الأدبي التربوي من جهة أخرى.

وقد صاغ الباحث هذه الفرضية بناء على موقف نقدي من منهجية التدريس القائمة، والتي تقتصر – حسب رأيه – على البعدين الفني والجمالي دون أن تهتم بالأنساق الثقافية الثاوية في النصوص. لذلك ارتأى أن الاستفادة من معطيات النقد الثقافي (وخَلْفَه الدراسات الثقافية) ستكون مفيدة في استكمال حلقات القراءة المنهجية في الدرس الأدبي.

1 – "الدراسات الثقافية؛ بين نقد الأدب وتدريسه". أطروحة لنيل الدكتوراه، أعدها الباحث المصطفى البوسعيدي، تحت إشراف الأستاذ محمد مساعدي. وقد تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– سايس بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، يوم الأربعاء 23 فبراير 2022.

وعلى المستوى المنهجي، اعتمد الباحث نوعين من المقاربات: المقاربة الأولى معرفية تفحص علاقة الدراسات الثقافية بالنقد الأدبي، وعلاقة النقد الأدبي بتدريس الأدب، حيث بَحَثَ انتقالَ التصورات والمفاهيم الثقافية التي تبلورت في مجال البحث السوسيولوجي إلى مجال الدراسة الأدبية، وسُبُلَ الاستفادة منها في المجال التربوي (تدريس الأدب). أما المقاربة الثانية فهي تقوم على التحليل النصي للأدب، مع توظيف أدوات النقد الثقافي.

وقد توصل الباحث إلى نتائج تتعلق بما يلي: طبيعةُ الدراسات الثقافية وتَوَجُّهُها النقدي الرامي إلى مراعاة الأبعاد الثقافية للنصوص والخطابات؛ دورُ النقد الثقافي في استكمال النقد الأدبي، من خلال إضافة البعد الثقافي إلى البعد الفني والجمالي؛ أهميةُ النظريات والتصورات المتحققة في مجال الدراسات الثقافية عموما وفي ميدان النقد الثقافي خصوصا؛ تطعيمُ الدرس الأدبي بمعطيات النقد الثقافي، ضمن قراءة منهجية متكاملة تجمع بين البعد الجمالي والبعد الثقافي؛ اقتراحُ تصور جديد للقراءة المنهجية في تدريس الأدب، يسترفد المفاهيم والتصورات الثقافية، ويراعي طبيعةَ النصوص ووظائفَها الفكرية والجمالية.

لعل ما يزكي هذه الأطروحة ويعطيها قيمة مُضافة، إقبال الباحث على تطوير القراءة المنهجية المعتمدة في العديد من الأنظمة التعليمية العربية، حيث فتح ضِمْنَها مجالا لربط النصوص المدروسة بالسياقات الثقافية الثاوية خلفها، وبالمقاصد الخَطابية التي توجهها. ففي ذلك تجاوزٌ لحدود المنهج البنيوي وانفتاحٌ على السياقات الكلامية والمقامات التداولية. غير أنها تثير قضايا معرفية وإشكالات منهجية ومسائل تربوية نشير إليها في ما يلي:

(1) يذهب الباحث إلى إن النقد الثقافي يتجاوز الحدود التي وقف عندها النقد الأدبي، أي حدود القراءة الجمالية للنصوص؛ والواقع أن النقد الأدبي كان على الدوام يزاوج بين الاهتمام بالجوانب الفنية الجمالية من جهة والجوانب الدلالية والفكرية من جهة أخرى. صحيح أن هناك تفاوتا بين المناهج النقدية في درجة التركيز على جوانب دون أخرى، لكن ظل الأدبُ، منذ أرسطو وإلى اليوم، يُعْتَبَر ذاكِرَةً حَيَّةً للإنسان عبر العصور، يختزن قِيَمَه الثقافية، ويعبر عن نمط وجوده وطريقة عيشه، وما فتئ النقدُ يُجَلّي هذه الأبعاد الإنسانية من خلال دراسة النصوص ومقاربتها وتحليلها.

يمكن في هذا الصدد أن نستحضر ما شئنا من النظريات والمناهج النقدية: فقد كانت نظرية أرسطو تعبيرا عما يعتمل في التراجيديات الإغريقية من صراع ثقافي بين قوى الخير وقوى الشر، مع ما يتضمن ذلك من أبعاد تاريخية واجتماعية ونفسية، ومن قضايا

وجودية وفكرية. وكانت نظريةُ عمودِ الشعر جُمّاعَ قِيَم ثقافية عربية، ذات أبعاد معرفية وأخلاقية وجمالية؛ فمعاييرُه السبعة تصب مباشرة في قِيَم الذكاء وحُسْن التمييز والفطرة السليمة والشرف والفطنة وحسن التقدير وسلامة الطبعَ. وكان لوسيان كولدمان يبحث – من خلال الأدب – في صراع الأفكار الناتج عن التفاعل الاجتماعي في سياق التاريخ. وكان التحليل النفسي (مع فرويد وأتباعه من نقاد الأدب) بحثا في شَرْط الإنسان وصراعه مع ما في السماء وما في الأرض. وكان النقاد الموضوعاتيون فلاسفةَ أدب يستقصون الصرخات الآدمية في أعماق الإنسان... هذا كلُّه وغيرُه يثبت أن النقد الأدبي ليس مبحثًا فنيا فقط، بقدر ما هو مبحثٌ إنساني شامل، يتخذ من الأدب ميدانا ليستكمل صورةَ الإنسان؛ تلك الصورة التي يعجز التاريخ عن رسمها كاملة وشاملة.

(2) انطلاقا مما ورد في القضية الأولى، بنى الباحث فَرْضيَّتَه الأساس على مغالطة معرفية مُفادُها أن النقد الثقافي يركز على الأبعاد والمضامين الثقافية، ومن ثمة فهو يُكَمِّلُ النقدَ الأدبي الذي يقتصر على الجوانب الجمالية للنصوص. إن هذه الفَرْضيَّة تقوم على الفصل بين الأبعاد الثقافية والأبعاد الجمالية؛ في حين أن الثقافة – بمعناها الدقيق – هي التفكير بالقيَم، وهذه القيم ثلاثيةُ الأبعاد: قيم معرفية مرتبطة بالصحة والخطأ، وقيم أخلاقية مرتَبطة بالخير والشر، وقيم جمالية مرتبطة بالجمال والقبح. وعلى ذلك فالبعد الجمالي يقع داخل الثقافة لا خارجها، ومنها يستمد معناه ومعاييرَه.

يبدو أن الباحث قد انساق وراء مغالطة معرفية ارتكبها عبد الله الغذامي في مطلع كتابه حول "النقد الثقافي"، فاعتبرها حقيقة غير قابلة للنقاش، وبنى عليها فَرْضيَّتَه الأساس. ومعلوم أن الغذامي داعيةٌ في حقل النقد الأدبي العربي، بخلفية سلفية وواجهة ما بعد حداثية، في واقع يعيش حداثة معطوبة؛ لا هي تخلصت من الأصوليات الممتدة، ولا هي استكملت دورَها ووظائفَها لتتحول إلى ما بعدها. ففي ثمانينيات القرن العشرين، نشر كتاب "الخطيئة والتكفير"، ادعى فيه ريادةَ المنهج التفكيكي في النقد العربي، غير أن الفحص الدقيق لهذا الكتاب يبين بشكل واضح أن الأمر لا يعدو أن يكون مقاربة موضوعاتية لأشعار حمزة شحاتة، تجمع شتاتَها لتبنى معنى دينيا قائما بشكل مسبق، وهي بذلك تنحو منحى مناقضا لفرضيات النقد الثقافي ومقاصده المنهجية التفكيكية. وفي التسعينيات، نشر كتابيه "المرأة واللغة" و"ثقافة الوهم"، ادعى فيهما ريادة النقد النسوي في العالم العربي، لكنه انتهى إلى جعل الفروق البيولوجية فروقا اجتماعية وثقافية. وفي بداية الألفية الثالثة نشر كتاب "النقد الثقافي"، ادعى فيه ريادة الدراسات الثقافية على المستوى العربي. وهو في الواقع مجرد تنظير مفتعل قائم على الانتقائية ومبني على متلاشيات التراث العربي، شحنه صاحبه بنزعة أصولية تجعلُ عمر بن عبد العزيز رائدً للدراسات الثقافية، وتجعل ابن سلام الجمحي ناقدا ثقافيا. هذا فضلا عن إعلانه موتَ

النقد الأدبي من أجل حياة النقد الثقافي كما تصوره. وقد اتخذ الباحثُ دعوةَ الغذامي مرجعيتَه الأساس، سواء على المستوى المعرفي أم على مستوى المنهج، أي في الشق النظري وفي الشق التطبيقي. وقد اتضح في ما بعد أن النقد الثقافي (ومعه الدراسات الثقافية) قد تحول في الثقافة العربية المعاصرة إلى إطارٍ عام ليس له حدود واضحة، اتخذه بعض الدارسين والنقاد شعارا لكي يتحدثوا عن النصوص والخطابات حديثا حرا، دون منهج أو خُطْوات مضبوطة. إنه حوارٌ حُرٌّ مع النصوص، خارج حدود المنهج.

(3) اقترح الباحث توجيه الدراسات الثقافية نحو تدريس الأدب في المدرسة المغربية، وهذه قضية تعبر عن إشكالية تربوية حقيقية، سَبَبُها طبيعةُ الدراسات الثقافية ونزعتُها التفكيكية. فالدراسات الثقافية (Cultural Studies) مبحث سوسيولوجي، ظهر في بريطانيا خلال ستينيات القرن العشرين، في "مركز بيرمينْكهام للدراسات الثقافية المعاصرة"، وانتقل خلال السبعينيات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ارتبط بالنظرية الفرنسية المهاجرة (French Theory)، أي بتصورات فلاسفة الاختلاف الفرنسيين، وفي التسعينيات انتشر في بقاع العالم وصار عالميا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات الثقافية، إبان انتشارها، وبفعل انفتاحها على أفكار ما بعد الحداثة، اتخذت أشكالا مختلفة، وتجسدت في تيارات فكرية متباينة؛ منها تيار دراسات ما بعد الاستعمار مع إدوارد سعيد وفرانس فانون وهومي بهابها، وتيار الدراسات النسوية، وتيار دراسات الزنوجة... كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن الدراسات الثقافية، بفعل نزعتها التفكيكية العامة، وبفعل توجهها النقدي الشامل، لقيت قبولا حماسيا لدى مثقفي العالم الثالث، الذين وجدوا فيها معاول لهدم الأنساق الثقافية الرسمية، والتمركزات الإيديولوجية المهيمنة (مركزية الغرب، مركزية الذكورة، مركزية الدولة...إلخ)، فأكَبّوا على ثقافة الأقليات وثقافة الهامش وثقافة اليومي والأدب الشعبي، وضربوا كشحا عن الأدب الرفيع والثقافة العالِمة.

بناء على ما سلف، نجد أنفسنا أما السؤال التالي: ما مدى صلاحية النقد الثقافي (ومعه الدراسات الثقافية) لتلاميذ المدرسة المغربية، وخصوصا في سلك ما قبل الجامعة؟ هل ينبغي أن نعلمهم كيف يستجمعون عناصر النص لِيُنْشئوا المعنى، أم ينبغي أن نحرضهم على تفتيت النصوص وتشتيت الدلالة وهدم المعنى؟ هلَ نحن في زمن حضاري يوجِب علينا الانتقال من البناء إلى التفكيك؟ هل استهلكنا من المعاني ما يكفي حتى نجترها ونعيد مضغها بطريقة أخرى؟ هل استوفينا شروط الحداثة حتى نمر إلى ما بعدها؟ وإذا كان ذلك ممكنا، فهل تلاميذ السلك الثانوي التأهيلي فئةٌ عمرية مناسبة لنوجهها إلى تحطيم الأصنام وتفكيك الأوطوبيات والأوهام؟

(4) تَسَلَّح الباحثُ بمنهجية تفكيكية، لكنه – في مقابل ذلك – عَبَّرَ عن احترامه الكبير للمؤسسة المدرسية، وفي ذلك مفارقة واضحة: قال في بداية الفصل الثالث (من القسم الثاني)، والمتعلق بتدريس الأدب من منظور النقد الثقافي: المدرسة "وسيطٌ مؤسَّسي يبني قِيَمًا مخصوصة، ويسعى إلى إشاعتها في المجتمع... وهي [أي المدرسة] تعتمد في ذلكَ على انتخاب القيم المناسبة، المتوافَق بشأنها، وتضمينها في المنهاج الدراسي" (ص 234). وقال أيضا (في الصفحة نفسها): "لا بد للمدرسةَ أن تنفتح على آخر النظريات الثقافية، وجعلها جسرا متينا بين المتعلم وبين سياسة الدولة العامة، التي تبتغي مواطنين صالحين..." (ص 234). هنا بالضبط تكمن المفارقة؛ فالباحث من جهة أولى يتبنى أهداف المدرسة، ويحترم المنهاج المعتمد فيها؛ ومن جهة أخرى ينقل إليها ما من شأنه أن ينسفها من الداخل. إنها دعوة مزدوجة إلى الحفاظ على النظام وإلى خلق الفوضى وتشتيت النظام.

(5) تمتد عناصر العنوان في الأطروحة على مستوى الترتيب: فهناك أولا الدراسات الثقافية التي خصص لها الباحثُ القسم الأول؛ وهناك النقد الثقافي الذي بدأ الحديث عنه نظريا في القسم الأول وامتد تطبيقيا في القسم الثاني؛ ثم هناك تدريس الأدب الذي خُصَّتْ به مباحثُ الفصل الثالث من القسم الثاني. غير أن وجود الظرف (بين) في العنوان يخلق نوعا من التشويش. فهو قد يفيد المقارنة، أي المقارنة بين الدراسات الثقافية في النقد الأدبي من جهة، والدراسات الثقافية في تدريس الأدب من جهة أخرى، وذلك انطلاقا من فَرْضيَّة أن هناك اختلافا أو تباينا بين الحالتين. لكن مسار الأطروحة يتجه في غيرِ هذا الاتجاه، بَل ينحو منحى الامتداد ويتسلسل من العام إلى الخاص. لذلك أقترح استبدال (في) الجارَّة بـ(بين) الظرفية، فيكون عنوان الأطروحة هو: الدراسات الثقافية في نقد الأدب وتدريسه.

من جهة أخرى، ينبغي أن يشمل عنوان الأطروحة الجامعية أكبر قدر من المعطيات الدالة على طبيعته ونوعها، دون أن يبلغ حد الإطالة طبعا. فمن العادة أن يدل العنوان على موضوع الأطروحة وهدفها، أو على موضوع الأطروحة ومنهجها، أو على العناصر الثلاثة مجتمعة. فيكون العنوان الرئيسي: الدراسات الثقافية في نقد الأدب وتدريسه، ويكون العنوان الفرعي: مقاربة ثقافية بيداغوجية، أو مقاربة بيداغوجية ديدَكتيكية، أو من أجل تجديد المنهاج الدراسي....

(6) اختار الباحث ديوانَ الشاعر محمود درويش "كزهر اللوز أو أبعد" ليقدم من خلاله دراسة نقدية ثقافية في الفصلين الأول والثاني من القسم الثاني، بعيدا عن القضايا التربوية وعن الأسئلة الديدَكتيكية؛ لكنه في الفصل الثالث اختار نصوصا أخرى من

الشعر الجاهلي ومن مقامات الحريري ومن "ألف ليلة وليلة" ومن رواية نجيب محفوظ "اللص والكلاب"، استقاها من الكتاب المدرسي "الممتاز في اللغة العربية". وقد نتج عن هذا الإجراء نوعٌ من التباعد بين فصول تطبيقية يضمها قسم واحد. ولو اقتصر الباحث على ديوان درويش فانتقل به (أو ببعض نصوصه) إلى المقاربة الديدكتيكية، بعد الدراسة الثقافية، لصَبَّ جهدُه الأول في مجهوده الثاني، وضمن للأطروحة بعض التسلسل والانسجام.

2. المناهج النقدية المعاصرة[2]

الموضوع العام لهذه الأطروحة هو "المناهج النقدية المعاصرة"، وقد دقق الباحث هذا الموضوع بأن حصره في البنيوية والتفكيكية ونظرية التلقي، وأطلق عليه توصيف "البنيوية وما بعدها". وبذلك يكون قد ركز على ثلاثة اتجاهات منهجية تبلورت في العَقْدين السابع والثامن من القرن العشرين، وتطورت بعد ذلك في العديد من الدراسات الأدبية الغربية والعربية.

إن توصيف هذه المناهج الثلاثة بأنها "معاصرة" فيه قدر من الدقة، لأنها تنتمي إلى إبدال معرفي معاصر في نظرية الأدب وفي النقد الأدبي، قام مقام إبدال معرفي سابق، هو الإبدال الحديث الذي كان يستند إلى الفلسفة الوضعية وامتداداتها في العلوم الإنسانية، ويؤطر المنهجَ التاريخي والاجتماعي والنفسي. ومن جهة أخرى، نرى أن المناهج المعاصرة تشمل، فضلا عن المناهج الثلاثة المشار إليها، اتجاهات منهجية أخرى، منها الاتجاه السيميائي واتجاهات الدراسات الثقافية (النقد الثقافي) واتجاهات البلاغة الجديدة والاتجاهات التأويلية... غير أن البحث في مجموع اتجاهات النقد المعاصر لا يمكن أن يضطلع به باحث واحد، ولا أن تستوعبه أطروحةٌ واحدة. لذلك نرى أن الباحث قد عبر عن طموح معرفي كبير، وخاض مغامرة صعبة، وهو يتناول ثلاثة مناهج كبرى من النقد المعاصر؛ فسقط في نوع من الابتسار والتعميم، رغم أنه انطلق من إشكالية واضحة واتجه بها نحو أهداف مرسومة، وفق تصميم منهجي متدرج ومتوازن.

رسم الباحث لأطروحته أهدافا معرفية وأهدافا ميتانقدية وأهدافا نقدية: تتمثل الأولى في كشف الأسس الفلسفية والمعرفية للمناهج النقدية المعاصرة؛ وتتمثل الثانية في فحص تطبيقات تلك المناهج في الدراسات الغربية والعربية؛ وتتمثل الثالثة في تحليل نص أدبي من التراث الشعري العربي لبيان إجراءات تلك المناهج وإشكالاتها على

2 – "المناهج النقدية المعاصرة؛ أسسها المعرفية وأساليبها الإجرائية التطبيقية، دراسة حول البنيوية وما بعدها". أطروحة لنيل الدكتوراه، أعدها الباحث محمد بلعيد، تحت إشراف الأستاذة شمس الضحى مراكشي. وقد تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– سايس بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، يوم الأربعاء 20 يوليوز 2022.

مستوى التطبيق. فعلى الصعيد الأول، سعى الباحث إلى الوقوف على خصوصية المناهج المعاصرة (البنيوية وما بعدها)، من حيث هي أسس فلسفية والمعرفية، ومن حيث هي مفاهيم وأدوات إجرائية؛ وعلى الصعيد الثاني، استحضر جملة من الدراسات (البنيوية والتفكيكية والتأويلية) ليُبْرِزَ خصوصياتها وحدودَها وإشكالاتها على مستوى الإجراء؛ وعلى الصعيد الثالث، بادر إلى تحليل نماذج نصية انطلاقا من المَنهج التفكيكي.

إن تعدد أهداف هذه الأطروحة جعل الباحث يسير بها في أكثر من اتجاه؛ لكنه مع ذلك ظل محافظا على هدف عام تحصنه وحدة الموضوع، وهو "المناهج النقدية المعاصرة"، التي اتخذت في الأطروحة توصيف "مناهج البنيوية وما بعدها".

تندرج إشكاليةُ هذه الأطروحة في إطار ما نصطلح عليه عادة بـ"أزمة النقد العربي الحديث والمعاصر"، حيث يُقْدِم العديدُ من النقاد العرب على مناهج النقد الغربي، فيسارعون إلى تطبيقها على نصوص عربية، دون اهتمام منهم بما تستند إليه تلك المناهج من مبادئ فلسفية ومن أسس معرفية، ودون مناقشة حدودها وآفاقها، وفي غياب فعالية ميتانقدية تفحص إنجازاتهم وتراجعها على المستويات المعرفية والمنهجية والتطبيقية.

في هذا الإطار، انطلق الباحث من إشكالية العلاقة بين مناهج النقد الأدبي وأسسها الفلسفية والمعرفية، مع ضرورة استحضار سياقاتها التاريخية ومُناخاتها الاجتماعية، ومع ضرورة تتبع ممارساتها على مستوى التطبيقات. وقد جسد الباحث أطراف هذه الإشكالية في أسئلة تحليلية، منها: إلى أي حد تسهم الأسس المعرفية والفلسفية في تأسيس المناهج النقدية المعاصرة؟ ما أساليب تطبيق مبادئ هذه المناهج على الظاهرة الأدبية؟ ما هي الإشكالات التي قد يتمخض عنها ذلك التطبيق على مستوى الخطاب النقدي المعاصر؟ ما هي تجليات هذه المناهج في الساحة النقدية العربية، على المستويَيْن النظري والتطبيقي؟...

أدرج الباحث أطروحته ضمن "نقد النقد الأدبي"، وهو مبحث معرفي ذو طابع إبستمولوجي، لأنه يضطلع بمهمة فحص الأعمال النقدية، بَدْءًا من مقدماتها المنهجية إلى نتائجها المعرفية، مرورا بأهدافها وفرضياتها وإجراءاتها. وقد جسد الباحث هذا الإطار المعرفي من خلال منهج "أركيولوجي" استقى أُسُسَه ومصطلحاته من تصورات ميشيل فوكو، ودَعَمَهُ بإجراءات وصفية وتحليلية.

انتهى الباحث إلى نتائج مهمة في ما يتعلق بموضوعه، منها ما هو عام يتصل بالنقد والنظرية والمنهج، ومنها ما هو خاص يتعلق بالمنهج البنيوي أو التفكيكية أو جمالية التلقي. فعلى المستوى الأول، خلص إلى أن النقد له بعدان لا يمكن الفصل بينهما: بُعْدٌ فلسفي ومعرفي خفي، وبعد إجرائي ظاهر، وأن النظرية مجموعٌ منسجم من الفرضيات يجري تفسيرها من أجل إدراك حقائق موضوعها، وأن المنهج هو السبيل إلى ربط

الممارسة النقدية بإطارها النظري. وعلى ذلك فهناك علاقة ترابط قوي بين هذه العناصر الثلاثة. وعلى المستوى الثاني، خلص إلى أن البنيوية فكر ومنهج وفلسفة، ترتكز على مبادئ العلاقة والكلية والتنظيم والمحايثة والتزامن؛ وأن التفكيكية تيار فكري يسير عكس مركزية النصوص، لأنه ينطلق من داخل النص ويتجه به نحو الخارج، وفق مبدأ لا نهائية المعنى؛ وأن جمالية التلقي نظرية تأويلية تركز على دور القارئ في إنتاج المعنى.

من الناحية المعرفية، سعى الباحث إلى طرق أكثر من موضوع، حيث تناول ثلاثة مناهج كبرى ضمن النقد المعاصر، هي المنهج البنيوي والمنهج التفكيكي والمنهج التأويلي (جمالية التلقي). ومن الناحية المنهجية، اضطلع بثلاث مقاربات، هي: المقاربة الإبستمولوجية الرامية إلى الإمساك بالمناهج المدروسة وضبط أصولها الفلسفية وأسسها المعرفية وإجراءاتها التطبيقية، والمقاربة الميتانقدية الرامية إلى فحص الأعمال النقدية ومراجعتها، والمقاربة النقدية الرامية إلى دراسة النصوص الأدبية.

وبناء على ذلك، نلاحظ أن أطروحة الباحث ذات مظهرين: مظهر سلبي تمثل في أنه استفرغ جهده في موضوعات ومقاربات كثيرة، مما أسقطه في التعميم والابتسار؛ ومظهر إيجابي يتمثل في تقديم معرفة واسعة بالنقد المعاصر، وتجريب مقاربات منهجية متنوعة، مما جعله يلج تَخَصُّصًا مهما في الدراسات العربية، ويَسْتَحْصِل معرفةً أساسية تسمح له بمواصلة أبحاثه في هذا المجال.

وحين نوازن بين المظهرين، نلاحظ أن الباحث كان مدفوعا بطموح علمي كبير يُعَدُّ من شروط البحث، كما أنه عبر عن قدرته على تتبع المراجع المناسبة، واستخلاص عناصرها الأساسية ذات الصلة بموضوعه، وتوظيفها بطريقة منهجية دقيقة. لكن رغم ذلك فإن أطروحته تثير قضايا معرفية منها توسيع إطار "ما بعد البنيوية" ليشمل مناهج مختلفة ومتباينة:

إن موضوع الأطروحة هو البنيوية وما بعدها. وقد حدده الباحث في "البنيوية" و"التفكيكية" و"جمالية التلقي". ونحن حين نتتبع تطور المناهج النقدية المعاصرة، نجد أن المقصود بـ"ما بعد البنيوية" هو التفكيكية والدراسات الثقافية ذات النزعة التفكيكية، أما "جمالية التلقي" فلا تدخل في هذا الإطار ولا تنتمي له، وإنما لها سياقُها الخاص في الدراسات الألمانية خلال ستينيات القرن العشرين، حيث ارتبطت عند فولفكانك إيزر بظاهراتية رومان إنكاردن، وارتبطت عند هانس روبيرت ياوس بتأويلية هانس جورج كادَمير. ولو تحدث الباحث عن اتجاه "نقد استجابة القارئ" (Reader Response Criticism) لجاز نعتها بأنها نظرية ما بعد بنيوية، بحكم منحاها التفكيكي الواضح. فمعلوم أن نظريات "ما بعد البنيوية" قد انطلقت من النظرية الفرنسية المهاجرة (French

Theory) التي مثلها كل من جاك دريدا وميشيل فوكو وجيل دولوز... أما البلاغة الجديدة فهي أيضا منهج معاصر في الدراسات الأدبية، لكنها لا تدخل في إطار "ما بعد البنيوية"؛ لأن لها سياقها الخاص، وهو إحياء النظريات الخطابية والحجاجية وإعادة إدماجها في الممارسات البلاغية.

3. القصيدة المغربية المعاصرة[3]

المبحث العام لهذه لأطروحة هو "الشعر المغربي المعاصر". وقد دقق الباحث هذا المبحث بأن حصره في ثلاثة أنماط من القصيدة المغربية المعاصرة، هي: النمط الخليلي، ونمط التفعيلة، والنمط الزجلي. وفي إطار هذا المبحث، حَدَّدَ موضوعَ دراسته في "البنيات الشعرية ومظاهر التجلي الوجودي"، وهو موضوع أفقي مُسْتَعْرَض سعى من خلاله إلى الجمع – معرفيا ومنهجيا – بين أنماط شعرية مختلفة من القصائد المغربية المعاصرة، ومن ثمة إلَى بَحْثِ خصائصِ الشعر المغربي المعاصر على أكثر من مستوى.

رسم الباحث لأطروحته أهدافا معرفية وأهدافا نقدية: تتمثل الأولى في كشف العلاقة بين البنيات اللغوية في الشعر وبين أبعاده الوجودية في الإنسان، وذلك على أساس أن اللغةَ هي مسكن الكينونة، وأن لغةَ الشعر، بما فيها من خرق فني وانزياحات جمالية، تعيد تشكيل الوجود وفق ما يسمح بالتعبير عن الشرط الإنساني العميق. أما الثانية فتتمثل في استنباط خصائص القصيدة المغربية المعاصرة (المتعددة الأنماط) من زاوية علاقة بنياتها اللغوية بعوالمها الدلالية المتخفية. وقد جمع الباحث بين هذين النوعين الأهداف، فاتجه بهما نحو هدف عام واحد هو دراسة القصيدة المغربية المعاصرة من زاوية العلاقة بين أساليب اللغة وصيغ الوجود.

انطلق الباحث من سؤال الوجود في الشعر، أي أنماط الكينونة الوجودية الثاوية خلف البنيات اللغوية للقصائد. ولتخصيص هذا السؤال، ركز على القصيدة المغربية المعاصرة بأنماطها الخليلية والتفعيلية والزجلية، ففحص مظاهر عديدة من الانزياح اللغوي الذي يسمح بالكشف عن أنساق دالة ذات بناءات وجودية، وهي النسق المعجمي والنسق التركيبي والنسق الأسلوبي (الصور الشعرية) والنسق الإيقاعي.

وقد اعتمد في ذلك مسارا منهجيا مُرَكَّبا، يجمع بين المقاربة البنيوية الكاشفة عن طبيعة اشتغال اللغة في القصائد المدروسة من جهة، وبين المقاربة التأويلية الرامية

3 – "القصيدة المغربية المعاصرة؛ بنية الشعر وتأويل الصيغة الوجودية؛ قراءة في النموذج الخليلي والتفعيلي والزجلي". أطروحة لنيل الدكتوراه، أعدها الباحث محمد مساوي، تحت إشراف الأستاذ خالد سقاط. وقد تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– ظهر المهراز بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، يوم الجمعة 3 مارس 2023.

إلى استكشاف العوالم الدلالية المعبرة عن الشرط الوجودي للشعراء وللإنسان عموما. ترتبط المقاربة الأولى باللسانيات المعاصرة وامتداداتها في علم الأدب؛ فقد اعتُمِدَت هذه المقاربة في بناء "شعرية" (Poétique) تستنبط خصائص الخطاب الشعري انطلاقا من استعماله النوعي للغة، فحققت نتائج باهرة على هذا المستوى. أما المقاربة الثانية فهي ترتبط بالفلسفة الظاهراتية وما تفرع عنها من نظريات تأويلية تبحث عن المعنى في التقاء النصوص بقارئيها لا في النصوص وحدها.

وقد كان الباحث على وعي بهاتين المقاربتين وبأسسهما العلمية والفلسفية، كما كان واعيا بما بينهما من اختلاف؛ لذلك حاول الجمع بينهما ضمن اختيار منهجي واحد. وبدا ذلك واضحا منذ مقدمة الأطروحة حيث بسط ثلاثة مفاهيم منهجية أساسية، هي "البنية" و"التناظر" و"الوجود". فمفهوم البنية يجسد المقاربة البنيوية، ومفهوم الوجود يجسد المقاربة التأويلية (ذات المنحى الظاهراتي الوجودي)، أما التناظر فهو تلك الأداة الإجرائية التي تربط بين داخل النص وخارجه، أي بين الأدب والواقع. وقد عرف كيف يلملم أطراف هذه الرؤية المنهجية وكيف يربطها بعنوان أطروحته وموضوعها من خلال المعادلة التالية: (بنية القصيدة + الرؤية الوجودية الكونية = بنية الشعر وتأويل الصيغة الوجودية).

توزعت نتائج الأطروحة بين خواتيم الفصول الأربعة، ثم استُجْمِعَت بشكل تركيبي دقيق في الخاتمة العامة، لتسفر بوضوح عن ما انتهى إليه الباحث في مبحث الشعر المغربي المعاصر، وفي مقاربة موضوع العلاقة بين البنيات اللغوية وصيغ الوجود في الشعر عموما:

فبخصوص المبحث، خلص الباحث إلى أن للشعر المغربي المعاصر تمظهرات متنوعةً وأشكالا متباينة، منها الشكل الخليلي والتفعيلي والزجلي، لكنها تعايشت وتلاقت في رهان إبداعي واحد هو رهان الحداثة؛ وذلك بما عبرت عنه من وعي أدبي عميق ومن قدرة على احتضان السياق الإنساني في أبعاده الوجودية والكونية. فقد تخلت القصيدة المغربية المعاصرة – حسب الباحث – عن النزعة الغنائية وعن الأغراض الشعرية التقليدية، كما تحررت من أصفاد الإيديولوجيات الضيقة، لتستوعب التجربة الوجودية للإنسان وقضاياه الكبرى.

أما بخصوص الموضوع، فقد انتهى – من خلال المقاربات النصية – إلى أن بنيات اللغة الشعرية في القصيدة المغربية المعاصرة قد شكلت فضاءً لانبجاس المضمرات الوجودية وانبثاق الأبعاد الإنسانية في مستواها الكوني. تحقق ذلك بفعل اشتغال الشعراء على اللغة وخلق علاقات جديدة بين عناصرها، سواء على المستوى المعجمي أم التركيبي أم التصويري أم الإيقاعي.

من الناحية المعرفية، قدم الباحث مبحثا مركبا، تناول فيه ثلاثة أنماط من الشعر المغربي المعاصر، هي النمط الخليلي والنمط التفعيلي والنمط الزجلي. وقد جرت العادة، في البحث الجامعي وفي غيره من الأبحاث والدراسات، أن يقتصر الباحث على نمط واحد، فيبقى مسيجا بمحدداته النوعية وما يناسبه من مفاهيم منهجية وأدوات إجرائية، فتكون نتائجه بالتالي جزئية متصلة بذلك النمط دون غيره. أما صاحب هذه الأطروحة فقد ركب مركبا صعبا وعبر عن طموح أكبر كَلَّفه مغامرةً معرفية شاقة، إذ سعى إلى استكشاف ما هو مُشْتَرَك في ما هو مُتَفَرِّق حسب عُرْف النقد الأدبي وتقاليده. وقد حقق ذلك بسبب اختياره لموضوع أفقي يتصل بخاصية الشعر أكثر مما يتصل بالاتجاهات والأنماط الشعرية المختلفة، وهو موضوع العلاقة بين البنيات اللغوية وأبعاد الوجود الإنساني في الشعر. ومن الناحية المنهجية، اعتمد الباحث مقاربة تركيبية استمد مفاهيمَها وأدواتها الإجرائية من البنيوية اللسانية والتأويلية الظاهراتية، ثم وجَّهَها نحو مبحثه واستثمرها في دراسة موضوعه، دون إطناب نظري.

إن ما تمت الإشارة إليه يؤكد طموح الباحث المعرفي وجسارته المنهجية، لكنه لا يحجب الجوانب الإشكالية المتصلة بصميم أطروحته. ومنها الجمع بين اختيارات شعرية مختلفة في موضوع واحد، واعتبارها ذات رهان حداثي واحد ومُوَحَّد؛ فقد صرف الباحث النظر عن تباين السياقات الإبداعية وعن تباعد الرؤى الإيديولوجية وتضارب مواقف الشعراء تجاه التراث الشعري العربي. ومن ذلك أيضا الجمع بين منهجين متباينين من حيث الإبدال المعرفي والمرمى الفكري والمقصد الإيديولوجي؛ فالشعرية اللسانية ترى أن شعرية الشعر (وأدبية الأدب عموما) هي نتاج الاستعمال النوعي للغة داخل النص، وألا علاقة لذلك بالمؤسسات الأدبية ذات الأصول الاجتماعية والتاريخية؛ أما التأويلية الظاهراتية فترد تلك الشعرية إلى القيم الجمالية والمعايير الفنية التي توجهها تقاليد القراءة توجيها اجتماعيا وتاريخيا. وبالإضافة إلى الإشكالين المشار إليهما، تثير الأطروحة قضايا أخرى متصلة بمبررات اختيار النماذج الدالة من الشعراء والنصوص، أو بمسوغات غياب قصيدة النثر المغربية المعاصرة من متن الدراسة، أو غير ذلك من القضايا والأسئلة...

4. نَقْدُ نقد القصة القصيرة العربية[4]

المبحث العام لهذه الأطروحة هو "نقد النقد الأدبي". وقد دقق الباحث هذا المبحث بأن حصره في ما اصطلح عليه بـ "الفاعلية المعرفية والإنجاز النصي". وفي إطار هذا المبحث، حدد الباحث موضوعين لدراسته: الموضوع الأول ذو منحى نظري، لأنه

4 – "نَقْدُ نقد القصة القصيرة العربية؛ الفاعلية المعرفية والإنتاج النصي". أطروحة لنيل الدكتوراه، أعدها الباحث محمد بوزكري، تحت إشراف الأستاذ عبد الرحمان التمارة. وقد تمت مناقشتها في الكلية المتعددة التخصصات بالرشيدية، جامعة المولى إسماعيل، يوم الأربعاء 21 يونيو 2023.

يتعلق بالمجهودات المبذولة في بلورة منهج نقد النقد في الدراسات العربية، والموضوع الثاني له منحى تطبيقي، لأنه يتعلق بـنقد القصة القصيرة العربية من خلال أعمال نقدية هي: "القصة القصيرة في العالم العربي" لحميد لحمداني، و"جماليات القصة القصيرة العربية الحديثة" لعبد اللطيف الزكري، و"كأن الحياة قصة قصيرة" لنجيب العوفي، و"جبل السرد العائم" لصالح هويدي.

وبناء على الموضوعين المشار إليهما، رسم الباحث لأطروحته نوعين من الأهداف؛ فهو من جهة أولى يسعى إلى توسيع دائرة فهم الطبيعة النوعية لمجال نقد النقد الأدبي، والإسهام في بلورة منهجية ميتانقدية ضمن الجهود المبذولة في هذا المجال؛ ويسعى من جهة أخرى إلى استكشاف خصوصيات الدراسات النقدية العربية المتعلقة بالقصة القصيرة، انطلاقا من التصور المنهجي المقترح. وقد ربط بين هذين النوعين من الأهداف، حيث جعل الأول مدخلا ضروريا للثاني، وعيا منه بأن دراسة الأعمال النقدية ينبغي أن تنطلق من تصور ميتانقدي يمنحها بعدا علميا ومنهجيا.

انطلق الباحث في أطروحته من إشكالية "المنهج الميتانقدي"، الذي من شأنه أن يضمن مسافة معرفية بين النقد ونقد النقد، حيث لا ينبغي لدارس النقد أن يتبنى أحد المناهج النقدية، لأنه يشتغل في مجال معرفة المعرفة، ومن ثمة يحتاج إلى مفاهيم وأدوات إبستمولوجية تضمن لعمله النجاعة والفائدة. ولكي يعطي لهذه الإشكالية بُعْدَها العَمَلي، رسم لأطروحته أسئلة تحليلية من قبيل: ما نقد النقد الأدبي؟ ما هو المسار المنهجي لهذا الحقل الإبستمولوجي الذي يندرج في إطار معرفة المعرفة؟ ما الفاعلية المعرفية لنقد النقد الأدبي؟ كيف يسهم نقدُ النقد في اكتشاف البناء المعرفي في نقد القصة القصيرة العربية، وفي سد ثغراته العلمية والمنهجية؟... لا شك أن هذه الإشكالية وأسئلتها التحليلية تضع الباحث أمام تحديات كبيرة، تستوجب الكثير من الاطلاع والكثير من الجرأة العلمية. وقد بدا واضحا أنه لم يذخر جهدا في ذلك.

انتهى الباحث إلى نتائج واضحة في مبحث نقد النقد الأدبي بصفة عامة، وفي مقاربة موضوع النقد القصصي العربي بصفة خاصة: فبخصوص المبحث الميتانقدي، خلص إلى توضيح الخلفية المنهجية الضابطة لتحقق نقد النقد، حيث تجاوز القراءة الوصفية والإيديولوجية ليتخذ المعرفة الإبستمولوجية منطلقا في المقاربة والتحليل؛ وبخصوص النقد القصصي الذي يشكل موضوعَه، انتهى إلى أن الإنتاجية المعرفية في عملَي حميد لحمداني وصالح هويدي تقوم على الازدواجية؛ ازدواجية الممارسة النقدية والممارسة الميتانقدية من جهة، وازدواجية المقاربة البنائية والمقاربة الدلالية من جهة أخرى، مما يدل على استيعابهما للمداخل النظرية والمنهجية. وانتهى إلى أن عمل عبد اللطيف الزكري

قد أسهم في تحديث الكتابة النقدية والخروج بها من مأزق التاريخ والتحقيب ودراسة اللغة لينقلها إلى مستويات أخرى أكثر عمقا. وانتهى أيضا إلى أن عمل نجيب العوفي يتميز بما أبرزه من مظاهر التحول النوعي في البنى الفنية والجمالية للقصة العربية. وهذه النتائج جميعها تلتقي في رسم صور المعرفة النقدية حول الخطاب القصصي العربي.

من الناحية المعرفية، قدم الباحث مبحثا مركبا تناول فيه النقد الأدبي ونقد النقد الأدبي، مما جعله يوجه جهده في اتجاهين. كان من الممكن أن يركز على دراسة الأعمال النقدية المدروسة، وأن يقلص حديثه عن نقد النقد في مدخل تمهيدي، لكنه وجد في نفسه انشغالا بقضاياه الإبستمولوجية واهتماما بما تحقق فيه من اجتهادات واقتراحات، فتابع ذلك واجتهد في المتابعة والاطلاع، وانتهى إلى اقتراح منهجية تستفيد من هذا المجال وتفيد فيه. ولعل من مزايا ذلك أن الباحث أرسى تصورات ومفاهيم وأدوات ميتانقدية قد يطورها مستقبلا في دراسة متون نقدية أخرى، سواء في مجال النقد القصصي أم الروائي أم الشعري أم المسرحي أم الفني عموما. وهكذا فالباب الأول يستجيب لمتطلبات موضوع الباب الثاني، لكنه يتجاوزه إلى مواضيع أخرى قد يتطلع الباحث إلى دراستها مستقبلا.

ومن الناحية المنهجية، في الباب الثاني، اعتمد الباحث مظاهر استوحاها من طبيعة الأعمال النقدية المدروسة، كل عمل على حدة؛ لذلك نجد محاور كل فصل تعكس طبيعة العمل المدروس ضِمْنَه، مما يدل على انتباه الباحث وابتعاده عن تعويم مقاربته في مقولات أو تصورات عامة.

من القضايا التي تثيرها هذه الأطروحة الْتباسُ مفهوم "الفاعلية المعرفية" ومفهوم "التطهير النقدي" اللذين اعتمدهما الباحث في تصوره المنهجي لنقد النقد، ومدى استجابة تحليل النصوص النقدية في الفصول التطبيقية (الباب الأول) للمنطلقات المعرفية والمنهجية التي ركز عليها في الباب الأول النظري، والجمع بين شروط نقد النقد وآلياته المنهجية...

5. سؤال الاعتراف في الرواية العربية المهجرية المعاصرة [5]

حددت الباحثة موضوعَ أطروحتها انطلاقا من ثلاثة مستويات متراتبة من العام إلى الخاص إلى الأخص: فالموضوع العام هو "الرواية العربية المعاصرة"، والموضوع الخاص هو النصوص الروائية التي كتبها مبدعون عرب يعيشون في المهجر خارج

5 – "سؤال الاعتراف في الرواية العربية المَهْجَرِيَّة المعاصرة؛ دراسة تأويلية مقارنة لنماذج باللغة العربية والأجنبية". أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، أعدتها الباحثة فَدوى العابدي تحت إشراف الأستاذة فاتحة الطايب. تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، يوم 7 مارس 2024.

أوطانهم الأصلية، أما الموضوع الأخص فهو سؤال "الاعتراف" في تلك النصوص بصفته قضية وجودية ذات مظاهر جمالية.

ولتجسيد هذا الموضوع بمستوياته الثلاثة، اختارت الباحثة سبع روايات، منها ثلاث روايات مكتوبة باللغة العربية، وروايتان مكتوبتان باللغة الفرنسية، وروايتان مكتوبتان باللغة الإنجليزية: "La disparition de la langue francaise" لآسيا جبار ، و"Travelling with Djinns" لجمال محجوب، و"إنها لندن يا عزيزتي" لحنان الشيخ، و"Les désorientés" لأمين معلوف، و"شطاري" لإنعام كجه جي، و"The Moor's account" لليلى العلمي؛ ورواية "ناقة الله" لإبراهيم الكوني. وبالإضافة إلى ذلك، استعانت الباحثة بمتن ثانوي تمثل في نصوص روائية أخرى لإبراهيم الكوني وحليم بركات وميرال الطحاوي.

وقد حرصت الباحثة على التنويع الجغرافي المتعلق بهؤلاء الأدباء، سواء من حيث بلدانهم الأصلية أم من حيث البلدان التي هاجروا إليها وأقاموا فيها: فأسيا جبار أديبة جزائرية مقيمة في فرنسا، وجمال محجوب أديب سوداني بريطاني، وحنان الشيخ أديبة لبنانية بريطانية، وأمين معلوف أديب لبناني فرنسي، وإنعام كجه جي أديبة عراقية فرنسية، وليلى العلمي أديبة مغربية أمريكية، وإبراهيم الكوني أديب ليبي سويسري، وحليم بركات أديب سوري مقيم في أمريكا، وميرال الطحاوي أديبة مصرية مقيمة في أمريكا... لا شك أن هذا المتن المتنوع يقدم مادة كافية لدراسة الرواية العربية المهجرية المعاصرة، ومن خلال ذلك موضوع الاعتراف وما يتصل به من قضايا الهوية والهجرة والازدواجية الثقافية.

رسمت الباحثة لأطروحتها هدفين مترابطين: الهدف الأول منهجي يتمثل في نقل مفهوم "الاعتراف" من مجال الفلسفة الاجتماعية إلى مجال النقد الأدبي، وتحويله إلى آلية مركزية في عملية تحليل النصوص الروائية المدروسة؛ أما الهدف الثاني فهو معرفي يتمثل في إبراز مظاهر حضور الاعتراف في أعمال بعض الروائيين العرب المهاجرين، على اعتبار أن مختلف الكتّاب المهاجرين يعيشون ازدواجيتين: ازدواجية الانتماء وازدواجية اللغة.

ارتبطت الإشكالية الرئيسية للأطروحة بسؤال "الاعتراف" من حيث هو حاجة إنسانية يتم انتزاعها بوسائل إبداعية وجمالية. وقد تجسدت هذه الإشكالية في مجموعة من الأسئلة الفرعية، منها ما يتصل بالقضايا الإنسانية، ومنها ما يتعلق بالمظاهر الجمالية والفنية. فقد طرحت الباحثة أسئلة الكتابة الروائية بصفتها محاولة للعلاج من الصدمات النفسية والاجتماعية، وبصفتها تعبيرا عن الهوية والانتماء، ورغبة في نيل الاعتراف،

كما طرحت أسئلة الاستراتيجيات الجمالية المختلفة التي يتحقق من خلالها الاعتراف الأدبي، سواء تعلق الأمر بالروائيين الذين يكتبون بلغاتهم الأصلية أم بالذين اختاروا لغات أجنبية.

وقد اعتمدت الباحثة في دراسة تلك الإشكالية منهجا تأويليًا مقارِنًا، جمعت فيه بين الدراسة المُكَبَّرَة (Macro- study) والدراسة المُصَغَّرَة (Micro- study): الأولى ترمي إلى استخلاص تصور عام حول الخصائص الجمالية والموضوعاتية في مجموع النصوص الروائية المدروسة؛ أما الثانية فهي ترمي إلى تحليل العناصر الجمالية التي تمنح الرواية العربية المهجرية خصوصيتها، في سبيل انتزاع الاعتراف الأدبي والهوياتي بأصحابها. وذلك بالتركيز على ثلاثة نماذج روائية: "ناقة الله" لإبراهيم الكوني، و"ما رواه المغربي" لليلى العلمي، و"اختفاء اللغة الفرنسية" لآسيا جبار.

وقد اتخذ هذا المنهج منحى تأويليا مقارِنا؛ فالتأويل يبدأ من كشف المعاني والدلالات الجزئية، وينتهي بإعادة تشكيل أنساق النصوص، بالاستناد إلى دائرة هيرمينوطيقية إبداعية؛ أما المقارنة فهي أداة للربط بين أنساق النصوص ومعانيها ودلالاتها بحثا عن الإطار الدلالي والجمالي المشترك بينها.

انتهت الباحثة إلى نتائج مهمة في مبحث الرواية العربية المعاصرة، وفي مقاربة موضوع "الاعتراف" في النصوص الروائية بصفة خاصة. وقد توجهت بتلك النتائج إلى إبراز ما تتميز به النصوص المدروسة، ومن ذلك ما يلي: تصور جديد عن الذات العربية أساسه التعددية والتنوع، حيث يتم استحضار جميع العناصر المكونة لتلك الذات التي ظلت مقصية ومهمشة، لتطفو على سطح المتون الروائية هوياتٌ ولغات وتواريخ جديدة وتمثلات مختلفة عن المكان والزمان والتراث الشفهي، يتجاوز حضورها رد الاعتبار إلى الاعتراف بتميز هذه النصوص؛ استراتيجيات جمالية جديدة، تعيد بناء الشكل الروائي من خلال التفاعل بين المرجعية الثقافية الأصلية والثقافة المستقبِلة، مما يغني الكتابة الروائية العربية وينوع أساليبها الفنية؛ ارتباط أزمات الهوية التي يعيشها المهاجرون العرب بثنائية التيه والعودة، وهي ثنائية دالة على فقدان الذات وإعادة اكتشافها؛ سعي المبدعين المهجريين إلى معرفة ذواتهم من خلال الآخرين، ومن ثمة إلى الاعتراف المتبادَل؛ اضطلاع المبدعين المهجريين بإسماع صوت المهمشين الذين أسكتتهم الإمبراطوريات الإمبريالية؛ السعي إلى تفكيك ما يُعَدُّ مركزا بعد استيعاب لغته وثقافته؛ طرح أسئلة حول التاريخ والمكان والذاكرة والتراث واللغة الأم واللغة الأجنبية والعلاقة بينهما؛ جعل العوالم المتخيلة فضاء للتحرر من الضغوط الإيديولوجية والحدود والحواجز التي قزمت الوجود الإنساني وأطرته في تراتبية العالم المتقدم والعالم متخلف.

من الناحية المعرفية، اضطلعت الباحثة بمبحث مُرَكَّب، يقع بين الفلسفة الاجتماعية والنقد الأدبي؛ وهذا ما دفعها إلى أن تبذل جهدا ملحوظا في الاطلاع والإحاطة. فهي لم تنتزع مفهوم "الاعتراف" من حقل الفلسفة لتزرعه في تربة الدراسة الأدبية إلا بعد أن بسطته وأوضحته في مظانه الأولى من خلال تصورات فريدريك هيغل وبول ريكور وأكسل هونيث ونانسي فريزر وتشارلز تايلور وغيرهم.... ثم إنها بررت عملية تهجير هذا المفهوم لإضاءة نوع مخصوص من النصوص الروائية العربية المعاصرة، هو الرواية المهجرية الطافحة بقضايا الغربة والهوية، وكان هذا التهجير قائما على ثلاث خطوات مضبوطة هي الحدس والاستيعاب والتوطين. وقد أدى بها هذا المسار المعرفي إلى استخلاص نتائج صميمية تفيد الباحثين في الأدب وفي الفلسفة الاجتماعية على السواء. وبالإضافة إلى ذلك، انفتحت الباحثة على نصوص روائية متباينة من حيث لغتها (العربية والفرنسية والإنجليزية)، لكنها متلاقية من حيث مرجعيتها الثقافية وسياقاتها الاجتماعية المتصلة بقضايا الهجرة، فضلا عن قضاياها الفكرية ومظاهرها الجمالية ورهاناتها الحضارية. ومن الناحية المنهجية، اعتمدت الباحثة مقاربة تركيبية استمدت مفاهيمها وأدواتها الإجرائية من الهيرمينوطيقا ومن الدراسات المقارنة، وعرفت كيف تستثمرها في دراسة موضوعها، وكيف توجهها نحو غايات واضحة.

ورغم ما بذلته الباحثة من جهود واضحة، ظلت أطروحتها دون تحقيق مطلب الإحاطة بقضية "الهوية العربية" في علاقتها بتعدد اللغات الذي اتخذته الباحثة منطلقا في الدراسة، وقضية الكتابة النسائية التي شكلت عبئا معرفيا إضافيا...

6. التخييل الذاتي في السرد العربي[6]

سعى الباحث في هذه الأطروحة إلى تحقيق نوعين من الأهداف: أهداف معرفية تتمثل في إبراز خصائص التخييل الذاتي وبيان مظاهره النصية وموقعه من باقي الأنواع السردية المختصة بالكتابة عن الذات؛ وأهداف منهجية تتمثل في اقتراح نَمْذَجَةٍ خاصة بالتخييل الذاتي، يتم اعتمادُها في مقاربة النصوص من منظور تداولي.

هذان النوعان من الأهداف يُجَسِّدان النقدَ الأدبي بمفهومه المعاصر، الذي يضطلع بمهمة مزدوجة: (1) مواكبة النصوص المدروسة وإبراز خصائصها وتقويمها بناء على ذلك؛ (2) الإسهام في بلورة التصورات والمفاهيم النظرية التي تستوعب تلك النصوص وتتعداها إلى نصوص أخرى من جنسها أو من نوعها الأدبي. فالمهمة الأولى

6 – "التخييل الذاتي في السرد العربي؛ مقاربة تداولية". أطروحة لنيل الدكتوراه، أعدها الباحث يونس الإدريسي، تحت إشراف الأستاذ شعيب حليفي، وقد تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– بنمسيك بالدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، يوم الخميس 30 ماي 2024.

تقوم على إجراءات الوصف والتحليل والتركيب والتقويم، والمهمة الثانية تنحو منحى التقعيد والتنظير؛ وهذا ما يجعل الأطروحة تندرج في إطار البحث الأكاديمي الجاد، ومن ثمة تفرض على الباحث قدرا مهما من اليقظة العلمية والجدارة المنهجية.

تَدَرَّجَ الباحثُ في تحديد موضوع أطروحته من العام إلى الخاص، ثم من الخاص إلى الأخص: فالموضوع العام هو "التخييل الذاتي في السرد" عموما، والموضوع الخاص هو "التخييل الذاتي في السرد العربي"، أما الموضوع الأخص فهو "التخييل الذاتي في السرد العربي الحديث والمعاصر". وقد اتبع الباحث هذا التدرج داخل الأطروحة، حيث استدعى التصورات النظرية المتعلقة بالتخييل الذاتي، ثم تتبع أهم المحكيات الذاتية في السرد العربي، ليصل بعد ذلك إلى دراسة التخييل الذاتي في السرد العربي الحديث.

وفي هذا الصدد، اختار مَتْنًا من ثمانية نصوص رآها تجسد التخييل الذاتي في السرد العربي الحديث، تَوَزَّعَ نشرُها بين سنة 1855 وسنة 2021، وهي كالتالي: "الساق على الساق في ما هو الفارياق" لأحمد فارس الشدياق؛ "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني؛ "ثلاثة وجوه لبغداد" لغالب هلسا؛ "ظل الشمس" لطالب الرفاعي؛ "أطياف" لرضوى عاشور؛ "أرق الروح" ليمنى العيد؛ "ألواح" لرشيد الضعيف؛ "التيهاء" لعبد القادر الشاوي.

اتخذ موضوع الأطروحة طابعَه الإشكالي من كونه يقع عند نقطة تقاطع العديد من العلاقات المُرَكَّبَة، وفي مقدمتها علاقة "الذات" بـ"الكتابة عن الذات"، بصفتها علاقةً قائمة على الامتداد والتطابق من جهة وعلى المفارقة واللّاتطابق من جهة ثانية. فالكتابة عن الذات لا يمكن أن تكون كتابة ذاتية خالصة ولا كتابة موضوعية خالصة... وتتولد عن هذه العلاقة علاقاتٌ أخرى شائكة، منها علاقة الذات بما هو فردي وبما هو جماعي، وعلاقة الذات بالماضي وبالحاضر، وعلاقة الذات بالواقع وبالخيال، وعلاقة الذات بالمؤلف وبالقارئ.

تقع هذه الأطروحة في 806 صفحة، وتشمل بابين، قَبْلَهُما إهداءٌ وكلمةُ شكر وملخص ومقدمة، وبَعْدَهُما خاتمةٌ وقائمةٌ بالمصادر والمراجع. الباب الأول مخصص بالحديث عن "التخييل الذاتي"، من حيث نشأته وخصائصه وأبعاده التداولية؛ والباب الثاني مخصص بالحديث عن "التخييل الذاتي في السرد العربي الحديث والمعاصر".

بسط الباحث في المقدمة مختلف المنطلقات المعرفية والمنهجية التي تقوم عليها أطروحتُه. ومن ذلك ما يلي: (1) تَحْديدُ الموضوع والمتن الذي يجسده، مع بيان أهميته والإشارة إلى أهم الدراسات السابقة المتعلقة به؛ (2) طَرْحُ الإشكالية والفرضيات المتصلة

بها والأسئلة التحليلية المتفرعة عنها؛ (3) بسط الرؤية المنهجية المعتمدة وبيان المقاربة المتصلة بها؛ (4) رَسْمُ بناء الأطروحة وما تقوم عليه من أبواب وفصول ومباحث.

ومما يلاحظ هنا أن الباحث كان حريصا على أن تكون المقدمة مستوفية لجميع المعطيات المعرفية والمنهجية الأولية والضرورية، وخاضعة لنوع من التنظيم الذي اقتضى منه تقسيمها إلى محاور وفق عناوين فرعية صغرى. لذلك جاءت هذه المقدمة طويلة نسبيا (ص14– 48).

خَصَّ الباحث الباب الأول (ص49 – 294) بمناقشة قضايا التخييل الذاتي وأبعاده التداولية على المستويات النظرية، حيث انطلق من الحديث عن الكتابة الذاتية في السرد العربي القديم والحديث (الفصل الأول)، ثم انتقل إلى الحديث عن تطور الكتابة عن الذات من "السيرة الذاتية" إلى "التخييل الذاتي" (الفصل الثاني)، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن هذا التخييل الذاتي وأبعاده التواصلية في ارتباطه بإشكالية الأجناس الأدبية وما يترتب عن ذلك من قضايا معرفية ومسائل منهجية (الفصل الثالث). أما الباب الثاني (ص295 – 763) فقد خُصِّص لدراسة التخييل الذاتي في السردِ العربي الحديث والمعاصر، من خلال مظاهرِ تشييد الهوية السردية (الفصل الأول) وتَشَكلات النص (الفصل الثاني) ومقصديات المؤلفين (الفصل الثالث). وأما الخاتمة فقد استجمع فيها الباحث خلاصات الفصول الستة ونتائج البابين، واتجه بذلك كله نحو صياغة رؤية تركيبية للنتائج والآفاق التي ترسمها أطروحته.

هناك علاقة وظيفية واضحة بين الباب الأول والباب الثاني، لأنه يبسط مختلف القضايا التاريخية والمعرفية التي سيتم استثمارها في دراسة النصوص وتحليلها؛ بيد أنه بالإضافة إلى ذلك يقدم رصيدا معرفيا مهما ومفيدا لكل قارئ يتوخى نوعا من الإحاطة بقضايا الكتابة الذاتية من حيث تطورها التاريخي، ومن حيث المفاهيم والتصورات النظرية التي واكبتها... وفي هذا السياق، يتعرف القارئ الكتابات الذاتيةَ في التراث العربي بإرهاصاتها الأولى ونماذجها البارزة (أبو حامد الغزالي، أسامة بن منقذ، عبد الرحمان بن خلدون) وما حف بها من قضايا نقدية، ثم يتبين خصائصَ السيرة الذاتية وما يتوسطها من أبعاد شخصية وما يدخل بين أرجائها من أبعاد مرجعية وما يتخللها من أبعاد تخييلية تنحو بها نحو منطقة وسطى (رمادية) بين الكتابة الذاتية والكتابة الروائية، أي نحو التخييل الذاتي. وهنا يكون القارئ قد تهيأ لمعرفة أبرز التصورات التي عرفها النقاش النظري المتعلق بهذا النوع من الكتابة، حيث حرص الباحث على تقديم أبرز التصورات التي اقترحها النقاد والباحثون من ذوي التخصص في هذا المجال، منهم سيرج دوبروفسكي وفانسون كولونا وجيرار جنيت وجاك لوكارم وماري داريوسك

ولوران جيني وفيليب غاسباريني وفيليب فيلان وتوماس كليرك ومحمد برادة وعبد القادر الشاوي وسلوى السعداوي وعبد الله شطاح وعبد المالك أشهبون وجليلة طريطر وزهور كرام وأحمد المديني وشكري المبخوث وهالة كمال.

وبناء على ذلك فإن هذا الباب يقدم مادة تاريخية وحصيلة معرفية تستجمع ما تفرق من مفاهيم وتصورات ونظريات ذات صلة بـ"التخييل الذاتي"، ومن ثم فهو يضع أما الباحث العربي إمكانات الاطلاع والإحاطة المطلوبة في هذا النوع من المجالات البحثية المهمة.

انتهى الباحث إلى نتائج عامة ترتبط بموضوع التخييل الذاتي، وإلى نتائج خاصة تتعلق بكيفية اشتغال هذا التخييل في السرد العربي الحديث:

فمن النتائج العامة أن التخييل الذاتي قد أسس لنفسه موقعا ضمن المؤسسة الأدبية والنقدية، حيث كُتبَت نصوصٌ تمثله وتبلورت بصدده تصوراتٌ ومفاهيمُ نظرية ونقاشات نقدية. تَحَقَّقَ ذلكَ نَصِّيًّا ونَظَرِيًّا أولا من خلال سيرج دوبروفسكي، الذي نشر نَصَّ "خيوط" (Fils) سنة 1977، وواكبه بتصورات ومفاهيم نظرية تضمنتها مقالاته ومؤلفاته. وقد استتبع ذلك نقاشات نقديةً مع فيليب لوجون وفانسون كولونا وفيليب كاسباريني وغيرهم.

وبناء على ذلك يُعَدُّ التخييل الذاتي جنسا أدبيا مستقلا بخصائص نصية تميزه عن السيرة الذاتية من جهة وعن الرواية من جهة أخرى. فهو لا يزيح باقي أشكال الكتابة عن الذات ولا يُعَوِّضُها، كما أنه لا يقوم مقام الرواية أو يُسْتَبْدَل بها، بل يبني ميثاقا قرائيا جديدا غَيْرَ قائم على استعادة حياة الفرد الكاتب، بل على إعادة بنائها وإنتاجها من جديد بأدوات التخييل ومكوناته. فهو يجمع بين البعد المرجعي والبعد التخييلي وفق مقاصد دلالية وجمالية خاصة به، حيث لا يمكن النظر إلى الذات على أنها جوهرٌ حقيقي أو كيانٌ مكتمل، بل بصفتها هوية سردية يتم بناؤها على مستوى النص، وهي هوية يطبعها التشظي والتعدد والاختلاف.

خلاصة ما وصل إليه الباحث في نتائجه العامة هي أنه ربط التخييل الذاتي بالكتابة ما بعد الحداثية (Postmoderniste) التي ترفض الحقيقة الأحادية، وتنأى عن مقولات الانعكاس والتعبير الصادق عن الواقع. فهو كتابةٌ تحرر الذات من الالتزام بقول الحقيقة ونقل الواقع ومطابقته حرفيا. ومن النتائج الخاصة أن محكي الذات في السرد العربي قد تطور من حيث مقاصده ومظاهره: فبعد أن كان في مرحلة أولى دفاعا عن ذات الكاتب وجعلها قُدْوَةً لذات القارئ، صار في مرحلة ثانية محاولةً لفهم الذات

وكشفًا لتخلفها إزاء الآخر وتطلعا إلى التغيير والخروج من التخلف، ثم صار في مرحلة ثالثة تخييلًا ذاتيا لبناء هوية سردية جديدة تقع في المنطقة الرمادية البينية بين السيرة الذاتية والرواية.

وقد تَبَيَّنَ الباحثُ أن النصوص التي تمثل هذه المرحلة الأخيرة تقدم ظواهر كتابية خاصة بها، منها أنها لا تنشغل بالبحث عن حقيقة واحدة وثابتة، ولا تنقل حياةً كاملة، تتضمن أحداثا مرتبة زمنيا، وتتجه نحو معنى مكتمل، بل هي كتابة مُتَشَظِّيَة تعتمد مفهوم "القرين" الذي يقوم مقام الذات داخل النص دون أن يكون هو الذات فعلا. وبذلك صارت الذات في التخييل الذاتي موضوعا للمعرفة وليست مصدرا للمعرفة... وهكذا فنصوص التخييل الذاتي أعادت الذات إلى الواجهة من جديد، لكن من منظور نصي لغوي وليس من منظور واقعي وتاريخي.

وفي دراسته المباشرة للنصوص المختارة، انتهى إلى أنها تتضمن ثلاثة مداخل: مدخل دلالي يقوم على بناء الهوية السردية؛ ومدخل نصي يُحاوِرُ الأجناس السردية المتاخمة في المنطقة البينية (النصوص تُحاوِرُ ذاتَها وتُحاوِرُ نصوصًا أخرى)؛ ومدخل تداولي يقوم على تجاوز التقرير والإخبار إلَى التخييل الذيَ يجعل القارئ شريكا في بناء الهوية السردية للذات موضوع التخييل... يتعلق الأمر ببناء هوية سردية تلتقط بعض عناصر الواقع المرجعي وتدمجها في سياق التخييل وفق مقصديات إيديولوجية وجمالية.

ومن النقط المضيئة في نتائج الأطروحة أن الباحث انتهى إلى اقتراح نَمْذَجَة للتخييل الذاتي العربي انطلاقا من المتن المدروس: فالتخييل الذاتي – حسب الباحث – ينطلق من ذات المؤلف فيعيد صياغتها من أجل بناء هوية ممكنة لها، وبذلك فهو يقع بين مُدْخَلات ومُخْرَجات: المدخلات هي ذات الكاتب بصفتها كينونة وجودية تعيش في الواقع وتتفاعل معه؛ والمخرجات هي الذات الـمُمْكِنَة بصفتها هوية سردية جديدة لتلك الذات، تعيش في اللغة وتتفاعل مع النصوص.

وبين المدخلات والمخرجات تتحقق كتابة التخييل الذاتي من خلال ثلاث عمليات: (1) عملية الاسترجاع بصفته حركة ذهنية تربط الماضي بالحاضر؛ (2) عملية إعادة البناء بوصفها تحويلا لتلك الذكريات إلى قالب لغوي وخلقا لعوالم جديدة، بأزمنة وأمكنة وأوضاع جديدة؛ (3) عملية التقويض بوصفه تشكيكا في صدقية ما يروى.

يتضح مما سبق أن الأطروحة تعكس ما بذله الباحث من جهد ملحوظ، سواء على المستوى المعرفي المتمثل في الإحاطة بالتخييل الذاتي تاريخيا ومعرفيا، أم على المستوى المنهجي المتمثل في مقاربة نصوص التخييل الذاتي وبيان مكوناتها وإبراز خصائصها

ذات الصلة بالموضوع. غير أن هذا لم يحجب الجوانب الإشكالية المتصلة بصميم هذه الأطروحة نفسها، والتي تستوجب نقاشا جادا وعميقا. من ذلك إشكالية الحدود بين "التخييل الذاتي"، بصفته نوعا سرديا متميزا (حسب الباحث)، وبين أنواع سردية أخرى متاخمة له أو متقاطعة معه، منها السيرة الذاتية واليوميات والمذكرات والرحلة والرواية السير ذاتية، وغير ذلك مما يدخل في خانة الكتابة عن الذات. فكيف يمكن أن نستدعي نصوصا ذاتية من السرد العربي القديم والحديث في ضوء مفهوم جديد متعلق بنوع حديث في الكتابة المعاصرة؟

هل جاء مفهوم "التخييل الذاتي" لمواكبة نوع جديد من الكتابة عن الذات، وإبراز خصائصه ومميزاته بصفته نوعا قائما بذاته، أم لإعادة النظر في مختلف الكتابات الذاتية السابقة وإعادة تقديرها وتنظيرها في ضوء تصور نظري جديد؟ وبعبارة أخرى، هل يتعلق الأمر بتصور نظري جديد أم بنصوص جديدة مَثَّلَتْ مرحلة مُسْتَجَدَّة ضمن تاريخ الأدب، ومرتبطة بما بعد الحداثة؟ فبقدر ما جاء مفهوم "التخييل الذاتي" ليحل القضايا المعرفية والإشكالات المنهجية المتصلة بالسيرة الذاتية، نجده يطرح قضايا ومشاكل أخرى جديدة تدفع إلى إعادة النظر في مختلف أنواع الكتابة ذات الصلة بالذات من قريب أو من بعيد.